Journal of Faslo el-khitab مجلة فصل الخطاب
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 11، عدد رقم: 01، مارس 2022، صص: 195-208

تاريخ الاستلام(2022/01/31)تاريخ القبول (2022/03/14)تاريخ النشر (2022/03/30)

المنهج الأسلوبي في النقد العربي الحديث بين الو افد الأجنبي والر افد البلاغي.

The Stylistic Approach in Modern ArabCriticism: between Incoming Foreigner and the Rhetorical Affluent

منقور صلاح الدين
جامعة ابن خلدون-تيارت(الجزائر)، salah.najib15@gmail.com

ملخص:
انبثق الدرس الأسلوبي الغربي عن تلك الجهود التي قدمها شارل بالي تلميذ دوسوسير، حين اكتشف أن الاختلاف بين الأساليب يظهر حينما تقترن اللغة بمستعمليها أي في بعدها التداولي، وأن تلك التعابير العفوية اليومية للغة تظهر معها اختلافات الأشخاص وطبقاتهم. واستتم صورته مع ليو سبيتزرو ريفاتير وغيرهم، ثم تفرعت الأسلوبية إلى فروع تعامل كل فرع منها مع الأسلوب كل حسب زاويته، إذ ارتبط مفهومه بالمبدع وبالنص وكذلك بالمتلقي، وبفعل المثاقفة تشكلت صورة أولية عن الدرس الأسلوبي العربي فمهّد له عبد الهادي الطرابلسي وأحمد الشايب وعبد السلام المسدي وغيرهم. ورغم أن الأسلوبية العربية لم تستقل بمعالم واضحة عن الأسلوبية الغربية إلا أن التحليل الأسلوبي للخطاب الأدبي العربي لم يتخلص في جانبه التطبيقي من معطيات البلاغة العربية القديمة، وقراءات الإحصاء وتأويلاته، وبقي مضطربا بين الو افد اللساني الغربي (يستمد منه تنظيراته) وبين الموروث البلاغي (يستمد منه أدو اته الإجر ائية عبر البيان والبديع والمعاني).

كلمات مفتاحية: الأسلوبية الغربية، البلاغة العربية، آليات التحليل الأسلوبي، التركيب، الاختيار، الانزياح، مستويات العلامة اللغوية.

المؤلف المرسل: منقور صلاح الدين الإيميل:salah.najib15@gmail.com

Summary:
The Western stylistic lesson emerged from those efforts made by Charles Paley, a student of De Saussure, when he discovered that the difference between styles appears when language is associated with its users, i.e. in its pragmatic dimension. These daily spontaneous language expressions show the differences of people and their classes, and he completed his image with Leo Spitzer, Rifater and others, then stylistics branched out into subsets, each of which dealt with style according to its angle, his concept was linked to the creator and the text as well as to the recipient. As a result of the acculturation, an initial picture of the Arabic stylistic lesson was formed, and Abd al-Hadi al-Tarabulsi, Ahmad al-Shayeb, Abd al-Salam al-Masadi and others paved the way for it. Although Arabic stylistics was not independent of Western stylistics, the stylistic analysis of Arab literary discourse did not get rid of the facts related to ancient Arabic rhetoric in its practical aspect, and the statistic perusals and its interpretations. And he remained confused between the Western linguistic newcomer (from which it derives its theorems) and the rhetorical inheritance (from which it derives its procedural tools through the statement, the Badi'a and the meanings)
Keywords: Western stylistics, Arabic rhetoric, stylistic analysis mechanisms, structure, selection, displacement, linguistic sign levels

---

1- مقدمة:

يفضي البحث في السؤال : ماذا قال النص؟ إلى مباحث علم الدلالة والتفسير وعن السؤال لماذا قال النص ما قاله؟ إلى مباحث التداولية والبراغماتية والوظيفية والمقصديات وعن السؤال: كيف قال النص ما قاله؟ إلى مباحث الأسلوبية والبلاغة.

يقر مؤرخو الأسلوبية بفضل السويسري شارل بالي تلميذ دوسوسير في التأسيس لعلم الأسلوب، وجعله فرعا من فروع علم اللغة، فرأى أن مهمة العالم اللغوي هي: "البحث في تلك القوانين اللغوية التي تحكم عملية اختيار المبدع اللغوي، أما عن وظيفة المحلل الأسلوبي عنده فهي القبض على القوانين الجمالية التي تحكم عملية الإبداع الأدبي"[1]، فقد ارتبطت الأسلوبية في نشأتها بلسانيات دوسوسير التي مهدت للطرح العلمي للظاهرة اللغوية وفق نظرة كلية وشمولية تتحكم في بنية العلامات اللغوية ونظامها، بتلك الثنائيات التي أرست المنهج البنيوي (اللغة والكلام، الدال والمدلول، المحورين الاستبدالي والنظمي، التزامني والتعاقبي).

وإذا كان الأستاذ -دوسوسير- قد استغرق في دراسة النظام اللغوي الثابت، فإن التلميذ – بالي- قد استمر بحثه من حيث توقف أستاذه، فاشتغل كثيرا على الجزء المتغير في العملية

التواصلية وهو الكلام، لاحظ أن نظام اللغة يبقى ثابتا ما لم تخرج للاستعمال، أما حين تقترن اللغة بالأفراد وتخرج للاستعمال فان التغيرات والتمايزات تبدأ بالظهور في الاستعمال اللغوي، فاقترح بالي علما آخر غير اللسانيات لدراسة هذه التمايزات. فكانت الأسلوبية علما يتتبع تلك الاختلافات ويقف على خصوصية الاستعمال اللغوي لكل فرد. وموضوع الأسلوبية عنده هو تلك الكثافة الوجدانية التي يشحن بها المتكلم خطابه في شتى الاستعمالات، فكل حدث لغوي هو صادر عن حدث عاطفي[2]، وحينما ربط بين الإحساس والأسلوب وجد الأنا حاضرة في الاستعمال اللغوي الفردي.

2-فروع الأسلوبية:

يعرف شارل بالي الأسلوبية ضمن بحوثه التي أجراها على اللغة الفرنسية "أنها البحث عن القيم التأثيرية لعناصر اللغة المنتظمة، والفاعلية المتبادلة بين العناصر التعبيرية التي تتلاقى لتشكيل نظام الوسائل اللغوية المعبرة، كما تدرس الأسلوبية هذه العناصر من خلال محتواها التعبيري والتأثيري"[3]، فلقد وردت إسهاماته وتأسيسه لمشروع علم الأسلوب في كتابيه(في الأسلوبية الفرنسية 1905، والوجيز في الأسلوبية 1905)، مركزا على القيمة العاطفية التي تحملها اللغة وليس على حقيقتها الموضوعية، فغاية علم الأسلوب عنده هي البحث في المضمون العاطفي الذي تحمله التعابير اللغوية البسيطة[4]، وقد تبعه في اتجاهه التعبيري العاطفي كل من الباحثين ماروزووكراسو[5]، ممن تبنوا فكرة البحث في القيم التأثيرية لعناصر اللغة والفاعلية المتبادلة بين هذه العناصر. ومعهما بارث الذي يرى"أن الأسلوبية تلتقي باللغة من جهة وبالكتابة من جهة أخرى، فاللغة معطى اجتماعي لا يخص الكاتب لكنه يتيح له وسائل التعبير، أما الكتابة فيبرز فيها اختيار الكاتب وقدرته على الانزياح داخل نظام اللغة، لذلك فالأسلوب يخترق اللغة ليرتبط بذاتية المبدع"[6].

وحينما اتسعت مجالات البحث في الأسلوبية تعددت فروعها إلى أسلوبية تعبيرية، وتكوينية، وبنيوية، وتوزيعية، وإحصائية...الخ، بل هناك من النقاد من يرى ان هناك أسلوبيات وليس أسلوبية واحدة.

فالاتجاه التعبيري (شارل بالي) يهتم بوقائع التعبير ومضامينه الوجدانية، ويتجاهل تحليل النصوص الإبداعية، وقد ركز على الفرو قات التي تبديها اللغة اليومية العادية (لغة جميع الناس كما يسميها) بعفويتها وأخطائها، فهي قادرة بحمولتها العاطفية على ان تعكس طبيعة المستعمل وتوجهاته وانتماءاته، كما يعول هذا الفرع من الأسلوبية على المفردات والتراكيب في وضعها الاستعمالي المنطوق، لان التهدجات الصوتية والتلوينات النطقية الموجودة في الكلام هي مرتبطة

بمزاج وسلوكات الفرد وعواطفه، كما أعطى –الاتجاه التعبيري- أولوية الدراسة للغة الجماعة وليس للتطبيقات والإبداعات الفردية للغة، "لأن الهدف منه لم يكن تعليميا أو اكتشاف القيم الجمالية للنص الادبي إنما كان لدراسة علاقة التفكير بالتعبير وطريقة تحقيق المرغوب بالمقول"[7]. ويعترف شارل بالي بالقول أن الفروقات الأسلوبية والعاطفية والاجتماعية انما تنكشف أولا في اللغة الشائعة التلقائية أكثر مما تنكشف في العمل الأدبي الفني "إننا اذا درسنا أسلوب بلزاك مثلا، فإننا ندرس الأسلوبية الفردية لبلزاك، وسيكون هذا الامر خطأ، فثم هوه لا يمكن تجاوزها بين استعمال الفرد للكلام في الظروف العامة التي تشترك فيها مجموعة لسانية، وبين الاستعمال الذي يقوم به الشاعر أو كاتب من الكتّاب "[8].

أما الأسلوبية التكوينية(الفردية) : فاهتمت بالأعمال الأسلوبية الفردية، ورائدها هو النمساوي ليوسبتيز، الذي يرى أن اللغة هي قائمة هائلة من الاختيارات وأن الأسلوب اختيار يقوم به المنشىء، ومجموعة الاختيارات الخاصة بمنشىء تكوّن أسلوبه الخاص[9]. وبهذا الطرح يكون ربما امتداد لفكرة بوفون (الأسلوب هو الرجل)، إذ يكون الأسلوب انعكاسا مطابقا لشخصية صاحبه، وتكون التعبيرات اللغوية صور للحوادث الفكرية الخاصة بصاحب التعبير. وتعد الأسلوبية الفردية من ابرز اتجاهات البحث الأسلوبي يسميها بيير جيرو بالنقد الأسلوبي، ويرى أن التحليل الأسلوبي "يهتم بلغة كاتب ما، أو بمدرسة معينة، أو بعصر أدبي ما، أو بكتاب واحد لمبدع واحد، وحتى بظاهرة واحدة في أسلوبه....الخ، ويشرحها بمقال القرية والمدينة وتعدد الطرق الرابطة بينهما، إلا أن سالك الطريق هو حتما يختار طريقه الى المدينة لسبب نفسي يدفعه لاختيار وجهة دون غيرها"[10].

أما آليات القراءة في المنهج الأسلوبي التكويني فقد لخصها سبيتزر:"القراءة ثم القراءة والصبر والثقة والتشبع بجو العمل حتى بروز كلمة أو سطر، ومن ثمة تنعقد الصلة بين القارئ والعمل، وتظهر ملاحظات جديدة وخواطر متواردة من دراسات سابقة تعين في الوصول إلى الأصل الاشتقاقي التكويني للعمل"[11]، فهناك حتما علاقة بين الاختيار اللغوي والعالم النفسي للشخص، لأن التعبير الفردي هو وليد مناخ فكري ونفسي واجتماعي معين، ولا يمكن تكراره طبق الأصل.

فالنص يمثل العالم الصغير الذي يعكس عالما كبيرا هو نفسية المبدع، ويخترق هذا العالم الصغير عبر الحدس والموهبة والتجربة، لذلك فتطبيقات هذا المنهج التكويني لا تخلو من مجازفة لأنها تعوّل على الحدس والمناورة بين المحلل الأسلوبي والنص، والعلاقة بينهما إنما تتشكل بعد قراءة النص مرات عديدة، فتظهر في النص خصيصة كلامية أو خاصية لغوية ملفتة للنظر،

ومتواترة بشكل معين، ومن خلالها يتم النفاذ إلى نفسية المبدع وتفسير الانحراف الفردي الذي حدث داخل الإبداع، لذلك يوصف سيتزر بأنه ممارس أكثر منه منظر للأسلوبية .

ويركز إجراءاته على المفردات والتراكيب اللافتة للانتباه ودرجة تواترها في الخطاب، ثم يجري البحث عن تفسير نفسي وتكويني لكل أثر أو مسحة أسلوبية[12] ، رغم علمه أن الربط بين ما هو لساني وبين ما هو ونفسي هو عملية نسبية يعتمد كثيرا على الحدس والموهبة مما دفع سبيتزر ليغير نهجه الأسلوبي في مرحلة ثانية من تطبيقاته الأسلوبية.

أما الأسلوبية البنيوية فيتم التعويل فيها على البنية اللغوية بالمفهوم الذي قدمه دوسوسير حين أشار إلى طبيعة النظام اللغوي المرتكزة على البنية والكلية والشمولية، وطرح الأسلوب حسب أصول البنيوية بالنظر إلى :

بنية القانون الذي يربط الوحدات اللغوية ، وبنية الرسالة (إذ تنتظم الإشارات اللغوية ضمن الخطاب)، لقد وجد ريفاتير أن الوقائع الأسلوبية لا يمكن ضبطها إلا داخل الوقائع اللغوية فهو يعرف الأسلوب انه: كل إبراز وتأكيد سواء أكان تعبيريا أو عاطفيا أو جماليا يضاف الى المعلومات التي تنقلها البنية اللغوية، فاللغة عنده تعبر والأسلوب يبرز[13] .

ويركز في بحوثه على الفعل الأسلوبي، ويقصد به ذلك التأثير المفاجئ الذي يحدثه اللامتوقع في عنصر من السلسلة الكلامية بالنسبة إلى عنصر سابق، وأن المؤلف عندما يستعمل اللغة لإحداث تأثير خاص ولفت انتباه المتلقي، تتحول معه هذه العناصر اللغوية الى عناصر أسلوبية[14] ، وليس ثمة أسلوب أدبي إلا داخل النص، لأن هناك فرقا بين الوقائع اللغوية التي تخضع لنظام البنية، والوقائع الأسلوبية التي تتميز بالفرادة داخل التوظيف في النص، كما يركز ريفاتير على العلاقة والتأثير الذي ينشأ بين الرسالة والمتلقي من خلال ردة فعله، لأن المبدع يشحن نصه ويراقب كيف ستكون الاستجابة، فيمارس رقابة على النص باختياراته ويمارس رقابة على المتلقي، فيتوقع ردة فعله ويحاول توجيهها، أما المحلل الأسلوبي عنده: فيبحث في المنبهات الأسلوبية، ويقع تخمينه على ردة فعل المتلقي فيبحث في أسبابها (منبهات أسلوبية)، فلا يمكن فهم أسلوبية ريفاتير إلا في ظل التفاعل بين النص والمتلقي، لأن المبدع يختار استراتيجيته (منبهات أسلوبية)، فيشّفر نصه ويستشرف كيف سيفك القارىء شفرته، فيجمع بين نظرية الإخبار(البنية) وبين مبادئ المدرسة السلوكية (ردة فعل المتلقي)[15] .

وقد ارتكز ريفارتير على مجموعة العناصر الإجرائية لتحديد مجال عمل أسلوبيته أهمها: عنصر المفاجأة، التجاور(الانزياح)، القارىء النموذجي، وعنصر التشبع.

3-الأسلوبية في الدرس اللساني العربي:

انتقلت الأسلوبية الغربية بفعل المثاقفة مع الآخر الى الخطاب النقدي العربي في سنوات السبعينات (20ق)، على يد مجموعة من الباحثين أبرزهم: عبد السلام المسدي (الأسلوب والأسلوبية)، صلاح فضل (الأسلوب وإجراءته) محمد عزام (الأسلوبية منهجا نقدية)، عبد الهادي الطرابلسي (خصائص الأسلوب في الشوقيات)، رابح بوحوش (الأسلوبيات وتحليل الخطاب) ، وبنفس العنوان تقريبا لنور الدين السد، عبد القادر عبد الجليل (الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية)، حميد الحمداني(أسلوبية الرواية).

وما نلحظه في هذه المؤلفات العربية هو محاولة تجاوز الإشكالات التي يطرحها المشروع الأسلوبي أو المشروع اللساني المعاصر بشكل عام وهي : إشكال التأسيس للأسلوبية في المنجز النقدي العربي، وإشكال المصطلح وإشكال التطبيق على الإبداع العربي (الشعر وسرد)،

ولعّل هذه الإشكالات ستزيد غموضا وعسرا إذا ما اعتبرنا الأسلوبية العربية لها ما يمهد لها في فصول البلاغة قديما، وتصبح مهمة رواد الأسلوبية العربية الحديثة هي التأسيس لمشروع الأسلوبية وتكييف مصطلحاته، ثم تجاوز الجدال الحضاري الذي يقع فيه الفكر الإنساني عادة بين التراثي والحداثي. لأنه في خضم هذا الجدال تظهر ثنائية البلاغة والأسلوبية ومحاولة وضع كلا من العلمين في إطاره المعرفي والتاريخي مطلبا علميا وحضاريا، فالواقع النقدي العربي لم يستطع تجاهل التواصل الموجود بين البلاغة والأسلوبية، بل من اللغويين من يعتبرهما تواصلا حضاريا ويجد في علم الأسلوب بلاغة جديدة، ومنهم من يجدهما علمين مستقلين، ويستند أصحاب الرأي الأول على نقاط لتقاطع بين البلاغة والأسلوبية، فهما يشتركان في دراسة نظم الكلام، وقضية المقام والمقال، ويستند أصحاب الرأي الثاني على نقاط الاختلاف والتباعد بين العلمين، ولعل أبرزها اعتبار البلاغة معيارية تعليمية والأسلوبية وصفية تشخيصية، وأن البلاغة تتعامل مع النص الأدبي، أما الأسلوبية فتتعامل مع الإبداع والكلام العادي، إلى غيرها من الفروقات الأخرى، لكن الراهن النقدي المعاصر، لا يستطيع إنكار التواصل القائم بين المجالين حتى أمكننا القول أن الأسلوبية رؤية نقدية جديدة ومقاربة أكثر جرأة داخل النص الإبداعي ، نقول هذا رغم ما يجده القارئ العربي من إشكال حقيقي أثناء تصنيف الأسلوبية العربية، وكيف تم التأييد لمشروعها في حلقة الدرس اللساني العربي المعاصر؟ وهل استطاعت الاستقلال عن البلاغة العربية ومن وسائلها الإجرائية وأدواتها التحليلية؟

فلا هي استطاعت التأسيس لمشروعها في حلقة الدرس اللساني العربي بعيدا عن التنظير من الأسلوبية الغربية، ولاهي استطاعت الاستقلال عن البلاغة العربية أثناء تحليل النص العربي .

4-مفاهيم متعلقة بمصطلح الأسلوب:

في تحديد مفهوم هذا المصطلح لا يقف الباحث على مفهوم واحد، ذلك أن معناه تتجاذبه حقول معرفية كثيرة وبيئات متعددة (العلم، الموسيقى، الأدب، الفنون....)

فهو في تراثنا العربي (السطر من النخيل وكل طريق ممتد[16]، والنظم من الكلام والطريقة فيه[17]) وهو النموذج أو القالب الذي تفرع فيه التراكيب[18]، أما في الدرس الأسلوبي العربي الحديث فتتوزع مفاهيم الأسلوب حسب أطراف العملية الإبداعية، ويكون له تعريف حسب الزاوية التي ننظر بها إلى الظاهرة الأسلوبية.

فمن زاوية المبدع أو المتكلم: فالأسلوب هو الرجل، وهذا التعريف نال قسطا وافرا من الشهرة والانتشار، والأسلوب طريقة الكاتب في التعبير عن موقف ما وتتم الإبانة من خلال هذا الموقف عن الشخصية الأدبية لهذا الكاتب، وتفردها عن سواها في اختيار المفردات وصياغة العبارات ونظمها[19]، وبذلك يكون الأسلوب هو طريقة الإنسان في التعبير عن نفسه بواسطة الكتابة، وحتى فكرة القالب والنموذج التي عبّر عنها ابن خلدون هي أساسا تربط الأسلوب بالمبدع، لأن المبدعين أفكارهم تفرغ حسب قوالبهم ونماذج تفكيرهم وقناعتهم وشخصياتهم.

أما من زاوية المتلقي: فالأسلوب يعرّف حسب ريفاتير أنه:" قوة ضاغطة تسلط على حساسية المتلقي بواسطة ابراز بعض عناصر السلسلة الكلامية وحمل القارئ على الانتباه إليها"[20]، وحتى فكرة المقام والمقال فهي تعرض أن يتشكل الأسلوب ، وتوجه استراتيجية الخطاب حسب الفئة المستهدفة ،أي أن المتلقي حاضر في ذهن المبدع زمن الكتابة، يسائله ويتوقع استجابته لخطابه، فيبني استراتيجيته حسب ذلك التوقع(أفق الانتظار)، كما أن درجة الإبداع هي في الواقع تتم ضمن التفاعل والاستجابة التي يبديها المتلقي للخطاب.

ويبقى الأسلوب من زاوية النص/الخطاب: فهو الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني[21]، وهو انحراف عن النمط المألوف، وهذا الانحراف إنما يتم في الخطاب وضمن اللغة وبصورة بسيطة إذا ما أردنا ربط الأسلوب باللغة أو بالخطاب فانك تجد لكل فن أو لكل جنس أدبي أسلوبه الخاص، فكتابة القصة أسلوبها يختلف عن الرواية، ويختلف عن القصيدة وعن المقال، وهكذا تتحكم نماذج الخطاب وأجناسه في عملية الأسلوب والاختيارات وهيكلية النص. وبذلك تتم مراقبة الأسلوب وتحليل الخطاب باستخلاص المنبهات الأسلوبية و اكتشاف عنصر التميز والفرادة ضمن التفاعل الموجود بين هذه العناصر الثلاثة التي تتحكم في الظاهرة الأسلوبية (المخاطب، المخاطب، النص)، فيفسر الأسلوب أنه انزياح في الاختيارات، لأن التفرد وصنع الذات انما يعتمد على

الانزياح، وهذا الأخير يكون في اختيارات المبدع، وفي تراكيب اللغة وحسب استجابة المتلقي، ويعتمد التحليل الأسلوبي كذلك على علم النفس(لربطه بالمنشىء) وعلى علم اللغة (بنية النظام اللغوي)، وعلى نظرية التلقي (استجابة المتلقي).

5- حدود المقاربة الأسلوبية وآلياتها:

تهتم الأسلوبية بدراسة الظاهرة الأسلوبية مستفيدة من علوم البلاغة واللسانيات والتاريخ والاجتماع والنفس والإحصاء وغيرها، فتسعى لكشف السمات الأسلوبية والتمييزية الغالبة على الأساليب عبر مستويات العلامة اللغوية (الصوتي، الصرفي، النحوي، الدلالي)،ولا تركز على جميع الوقائع اللغوية الواردة في النص إنما فقط على تلك التي تجعل من توجه أسلوبي معين أسلوبا مختلفا،وانزياحا مغايرا عن الاستعمالات المألوفة، كما انها تتجاوز آليات البلاغة من ألوان البيان والبديع ومختلف أبواب علم المعاني، إلى آليات موسعة من قبيل نحو الجملة ومافوق الجملة ولسانيات الخطاب لأنها تتعامل مع النص كوحدة متصلة وليس وحدات لغوية منفصلة، وإن بدت الممارسات الإجرائية للمنهج الأسلوبي في كثير من البحوث العربية تركز على مستويات اللفظ وتستخرج المتغيرات الأسلوبية الموجودة مثلا عبر المستوى الصوتي (كالصوامت والصوائت والمقاطع والوحدات فوق مقطعية) وقضايا الإيقاع الخارجي (الوزن والقافية والروي) وكذا نسبة تواتر وتكرار وحدة صوتية أو فونيما بعينه، وكيف يمكن استثمار ذلك التواتر أو التكثيف في قراءة الدلالة والوصول إلى نفسية المبدع وذاتيته، وعبر المستوى النظمي التركيبي الذي يتجاوز إجراءات النحو المألوفة في نظام الجملة العربية خاصة، مثل المركبات العطفية والنعتية والجرّية والمضافات وغيرها، إلى آليات أوسع كالتقديم والتأخير والوصل والفصل والإيجاز والحذف والالتفات والتشاكل والتقابل والتباين والاتساق والتناص وغيرها مما يمكن اعتباره من صميم السبك والنظم في الكلام وهندسة النصوص، لان التحليل الأسلوبي يفضي إلى تفكيك ذلك الإسقاط الذي قام به المبدع في مرحلة تأليف القصيدة أو الكلام عموما، حين يسعى إلى بناء جمله وتخيّر انزياحاته الخاصة به عبر إسقاط محور الاختيار(الاستبدالي) على محور التركيب(النظمي)، فيأتي الناقد الأسلوبي ليفتش في اختيارات المنشيء للغة(أنواعها وتفاصيلها ودوافعها) فيسهل تفسيره للصور البيانية والرموز المعتمدة داخل نظام القصيدة، ويسعى لقراءة الاختيارات لأنها حتما سوف تقودنا إلى النموذج الفكري والقالب الصورى لصاحب الأسلوب، طالما أن الأسلوب هو شخصية الرجل ونمط تفكيره كما يقول بوفون وهو القالب والنموذج الذي تفرغ فيه التراكيب كما يقول ابن خلدون، وكل قالب ونموذج معدّ حسب ثقافة ونمط تفكير معين حسب شخصية

صاحبه، وفي كثير من الأحيان يعتمد نزار على الأسلوب الحسي والسياب على الأسلوب الحيوي وعبد الصبور على الأسلوب الدراميوالبياتي على الأسلوب الرؤيوي وأدونيس الأسلوب التجريدي[22]،

وينبغي التنويه هنا أن وظيفة المحلل الأسلوبي تتعدى كونها مجرد تفكيك لبنيات الاختيار والتركيب وإحصاء المتغيرات الأسلوبية في المستويات الأربعة، إنما هو يبحث في هذه البنيات واستراتيجياتها وأدوات المبدع في خطابه، من أجل الوصول إلى نقطة الفرادة والتميز التي تفاضل بين أسلوب مبدع وآخر وتفاضل بين استعمال واستعمال في اللغةنفسها، فتغدو الخاصية الأسلوبية تحويلا للوقائع اللغوية التي يشترك فيها المتكلمون إلى وقائع أسلوبية يتفاوت بها المبدعون والمستعملون، لأن اللغة تعبر أما الأسلوب فيبرز، لذلك يحتاج المحلل الأسلوبي على معيار آخر لضبط المؤشرات الأسلوبية وهو معيار الانزياح، ليرصد ما تم من انزياحات على مستوى محوري التركيب والاختيار بدءا من اللغة في وضعها المعياري ووصولا إليها في وضعها الشعري والفني، لان الانتقال من اللغة المعيارية إلى اللغة الشعرية يتم بواسطة الانزياح.

وإن بدا وأن إجراءات وآليات المنهج الأسلوبي مختلفة عند المحللين إلا أنها تجتمع عند معظمهم على استخراج وتتبع المتغيرات الأسلوبية عبر مستويات العلامة اللغوية (الصوتي، الصرفي، النحوي، الدلالي)، كما أنها تعرج على دراسة وقراءة المحددات الأسلوبية(الاختيار، التركيب، الانزياح)، هذا إذا اعتبرنا أن مجال التحليل الأسلوبي يزدهر أكثر مع الخطابات الشعرية ويخبو إذا تعلق الأمر بتطبيق هذه الآليات على الخطاب السردي الروائي، فحتما أسلوبية الرواية وبناءها السردي يختلف تماما عن أسلوبية الشعر ولغته البلاغية الجميلة، فالأعمال الروائية القصصية تستقي مادتها الأسلوبية من عناصرها الخاصة من قبيل الشخصية والحدث والزمان والمكان والسرد، بينما اللغة وانزياحاتها في الخطاب الشعري هي محور العمل الفني، ما يفرض على المنهج الأسلوبي أثناء التحليل تجاوز الكلمة والجملة إلى بنيات أوسع وأكبر تتوافر بدورها في الخطاب السردي كالبنى السردية والبنية الحوارية وتبادل الضمائر وحركات الحال والتحول للأحداث وغيرها من الميزات الأسلوبية التي تحيل على الحس الحكائي المضمر داخل الخطاب السردي. دون إغفال جانب الفرادة والتميز التي تطبع شخصية المبدع(الروائي).

إن دراسة المستويات والمحددات في الواقع هي معالم كبرى تعول عليها المقاربة الأسلوبية، وأحيانا تعتمد على عناصر غير لغوية مثل الجانب النفسي للمؤلف وكذلك السياق والموقف لتبرير التخريجات الدلالية وقراءة الإحصاءات وربطها بتواتر بعض المركبات اللغوية.

ولا تشترط المقاربة الأسلوبية حضور هذه الآليات مجتمعة في نص واحد، فليس يوجد مسار جاهز وثابت للمقاربة الأسلوبية وليس ثمة خطوات بعينها ينتقل عبرها الناقد الأسلوبي،

فنحن أمام انفتاح لأفق التحليل حسب طبيعة الخطاب وتميز المؤلف ودرجة استجابة المتلقي. كما لا تبدو من مهمة التحليل الأسلوبي رصد التوظيف العادي للوقائع اللغوية، إنما رصد التعامل الجديد والمتميز لها مع محاولة اكتشاف العالم الخاص للمبدع عبر انزياحاته واختياراته وتركيباته التي قام بها داخل نصه.

فمجموعة الاختيارات الخاصة بمنشئ معين هي التي تميز أسلوبه عن غيره[23]، ولقد كان كراسو يحدد ظاهرة الأسلوب أنها اختيار يراعى فيه الباث والمتلقي والخطاب فيقول: "إن قانون الاختيار ليس وقفا على الظاهرة الفنية، وإنما هو عقد من الوعي المشترك بين الباث والمتلقي في جهاز التواصل عامة"[24]. فهو اختيار واع تحت سلطة المؤلف وفق ما توفره اللغة من سعة وطاقات ومتاحات لفظيه.

أما التركيب فهو كذلك عنصر أساسي في التظافر اللغوي، وعليه يقوم الكلام الصحيح، وهو قريب من معنى النظم والنحو، يقول ريفاتير:" الخطاب الأدبي تركيب جمالي للوحدات اللغوية من خلال استثمار معاني النحو" [25]، فلا يكون الاختيار مفيد إلا إذا أحكم توزيع المختارات وتركيبها، وهو ما يعبر عنه في اللسانيات بإسقاط المحور الاستبدالي على المحور النظمي.

ويبقى الانزياح الذي هو أساس الانتقال من اللغة المعيارية إلى اللغة الشعرية، ولا يمكننا ضبط خاصية الفرادة وتحقيق معنى المقولة (الأسلوب هو الرجل)، من دون مراقبة الانزياحات (الاستبدالية والنظمية) التي تتم على مستوى الكلام أو الإبداع، فالأسلوبية عند البعض هي علم الانزياحات، ويعرّف أنه "خرق للقواعد حينا ولجوء إلى ما ندر من الصيغ حينا اخر"[26]، فالمبدع يخترق اللغة ويخالف نظامها المألوف ليحقق ذاته وتميزه، فكل عدول عن المألوف هو أسلوب جديد حسب بيير جيرو، أما المسدي فيراه احتيال الانسان على اللغة ليسدّ عجزه وعجزها[27]، ويرتبط مفهومه عند كل من ريفاتيروجاكوبسون بعنصري المفاجأة وخيبة الانتظار، فالمفاجأة كلما كانت غير منتظرة كلما كان وقعها أكثر تنبها على المتلقي.

وتتحرك حدود المنهج الأسلوبي ضمن هذه الآليات التي تعول على دراسة مستويات اللغة وعناصر الاختيار والتركيب والانزياح، وهي اليات قد أشار إليها التحليل البلاغي بمسميات عديدة منها النظم والنحو وقضايا علم المعاني..الخ، غير أن المقاربة الأسلوبية تجاوزت الطرح الجمالي الذي كادت البلاغة أن تحصره في الجانب اللغوي، ووسعت دائرته ليشمل المؤلف واستجابة المتلقي، فجمعت بين معطيات حقول معرفية متعددة منها البنيوية وعلم النفس والاجتماع والبلاغة والإحصاء والنظرية السلوكية وغيرها.

6-الخاتمة:

لقد حاولت أوراقنا أن تقدم نظرة موجزة للدرس الأسلوبي الغربي في تفاصيله وأعلامه مراحله، ثم كيفية تلقيه ضمن المنجز النقدي العربي لتكوين أساس لمشروع الأسلوبية العربية، من دون إغفال الحديث عن منطقة التقاطع بين موروثنا البلاغي والوافد الأسلوبي الجديد، خاصة عندما يتعلق الأمر بمساءلة الخطاب العربي القديم، ومن دون افتعال صراع عقيم بين الأسلوبية والبلاغة عبر جدل الأصالة والمعاصرة، نتجاوز ذلك لان الناقد العربي ملزم بتوصيف النظريات الحديثة والإلمام بخلفياتها المعرفية، والوقوف على ما يستطيع فعله وما لا يستطيع بهذه العلوم الانسانية التي تجاوزت حدود الجغرافيا، لأن إلماما ضيقا بها قد يعوق معه تحليله للأعمال الأدبية وقراءة تراثه، فوجب الحرص على فهمها من باب معرفة محاورها وحدودها الابستمولوجية ومناطق تصادمها مع خصوصية الخطاب الإبداعي العربي، وليس بغرض تقمصها أو تبنيها والمحاجة بها.

ومع منهجنا -الأسلوبية- الذي اخترناه للدراسة فإن التنظير له يجعلنا أمام فتح في حقل العلوم اللغوية واللسانية، أما تطبيقه على النص الإبداعي العربي فيحيلنا إلى منجزنا النقدي البلاغي، ففي كثير من الأحيان يروم الناقد العربي تطبيق المقاربة الأسلوبية على نص ما، فيجد نفسه بين أحضان البلاغة العربية القديمة يستقي وسائلها والياتها الاجرائية، وهو لا يدري لماذا كتب عليه الانطلاقة الأسلوبية وفي نفس الوقت أن يبقى في حضن موروثه البلاغي، هل تم ذلك بفعل محدودية المنهج الأسلوبي أم بفعل سلطة وخصوصية النص العربي القديم.

مازال عقلنا العربي لم يتخلص من حيرته بعد في مواجهة التطورات الفكرية العالمية، حتى أطلت عليه هذه الأخيرة بتيار جديد أطلق عليه ما بعد الحداثة، فهل سقط مشروع الحداثة وأخفق في تحقيق وعوده مع النص، وهل كان العقل العربي على حق حينما ظل لا يستطيع تفسير الخلل الموجود في المناهج النقدية الحديثة خاصة حينما ينتقل من التنظير الى التطبيق؟ إن نظرة سريعة لمسار الأسلوبية العربية عبر محطاتها الأولى سوف تشرح لنا ذلك، فهي قد انطلقت مع الرواد (الشايب والطرابلسي وصلاح فضل وغيرهم...) ممن حاولوا التأسيس والتنظير وتليين المصطلح ومن ثم التطبيق، لكن الحقيقة التي تبرز هي أن الفكر العربي قد سهل عليه تقبل وتلقي التيار الأسلوبي لأنه محكوم بمنظومة عالمية ينتمي إليها، لكن النص العربي القديم في تشكيلاته الأسلوبية بقي ضمن دوائر البلاغة الثلاث، وبقي معه التحليل الأسلوبي موصوفا بالتقديم والتأخير والمجاز والحقيقة والتقابل والالتفات والإيجاز والإطناب وغير ذلك، من وسائل الإجراء المستلهمة من فصول البلاغة قديما.

ففعلا هناك مرونة يبديها العقل العربي ومنظّروه في الانتماء للحداثة، كما أن هناك تصلبا يبديه النص العربي في التملص من المقاربات النقدية الحديثة، وتظل خصوصيته وسلطته لا تستجيب في أحسن الأحوال إلا للجام البلاغة العربية.

مراجع البحث وإحالاته:

1- عدنان حسين قاسم، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، الدار العربية للنشر والتوزيع، مصر/2001، ص40.

2- ينظر: عدنان بن ذريل، النص والأسلوب، مجدلاوي للنشر والتوزيع، مصر، ط2002/2، ص62.

3- المرجع نفسه، ص 137.

4- ينظر: نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص64.

5- ينظر يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، ص30.

6- محمد شكري عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، المكتبة الرئيسية، مصر، ط1992/2، ص36.

7- مجيد عامر، مقال عن شارل بالي وأسلوبيته، مجلة آداب، البصرة، العدد2011/52، ص110.

8- منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري سوريا، ص122.

9- ينظر: أحمد الشايب، الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية، دار النهضة مصر، ص118.

10- بيير جيرو، الأسلوبية، ترجمة منذر عياشي، سوريا، ط1994/2، ص67.

11- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 2ص123.

12- ينظر: محمد الكواز، علم الأسلوب مفاهيم وتطبيقات، منشورات جامعة السابع ابريل، ليبا، ص76.

13- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 2/ص123.

14- ينظر، رابح بوحوش، الأسلوبيات وتحليل الخطاب، ص38

15- ينظر: الأسلوبيات وتحليل الخطاب، رابح بوحوش ،ص165

16- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط2000/1، ص224.

17- الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 211.

18-ابن خلدون، المقدمة، بيروتط2006/2،ص487.

19- ينظر: بشير تاوريت، محاضرات في مناهج النقد العربي المعاصر، دار الفجر قسنطينة، ط2006/1، ص156.

20- يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية مقدمات علمية، الاردن ط1999/1، ص162.

21- عدنان بن ذريل، النص والأسلوب بين النظرية والتطبيق، ص44.

22- ينظر: فاتح علاق، في تحليل الخطاب الشعري، ص89.

23- ينظر :نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص170.

24- المرجع نفسه، ص175.

25-: المرجع نفسه، ص188.

26- عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، دار امية، ط1989/2، ص103.

27- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص 106.

قائمة المراجع:

1. ابن خلدون، المقدمة، تح. لونان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،2004.
2. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط2000/1.
3. أحمد الشايب، الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية، دار النهضة مصر
4. بشير تاوريت، محاضرات في مناهج النقد العربي المعاصر، دار الفجر قسنطينة، ط2006/1.
5. بيير جيرو، الأسلوبية، ترجمة منذر عياشي، سوريا، ط1994/2.
6. عبد السلام المسدّي، الأسلوبية والأسلوب، دار سعاد الصباح - الكويت اط.4 عام، 1993م
7. عدنان بن ذريل، النص والأسلوب، مجدلاوي للنشر والتوزيع، مصر، ط2002/2
8. عدنان حسين قاسم، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، الدار العربية للنشر والتوزيع، مصر/2001
9. فاتح علاق، في تحليل الخطاب الشعري، دار التنوير، الجزائر، ط2008/2،
10. مجيد عامر، مقال عن شارل بالي وأسلوبيته، مجلة آداب، البصرة، العدد2011/52.
11. محمد الكواز، علم الأسلوب مفاهيم وتطبيقات،منشورات جامعة السابع ابريل، ليبيا.
12. محمد شكري عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، المكتبة الرئيسية، مصر، ط1992/2.

13. منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري سوريا.
14. نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب،دار هومة النشر والتوزيع، الجزائر 2010.
15. يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار سعاد الصباح - الكويت ط.4 سنة:1993م
16. يوسف ابو العدوس، البلاغة والأسلوبية مقدمات علمية، الاردن ط1/1999